أم ميمي

روايــة

اسم المؤلف: **بلال فضل**

Author: **Belal Fadl**

عنوان الكتاب: **أم ميمي**

Title: **Om Memi**

تصميم الغلاف: **ماجد الماجدي**

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**

الناشر: **دار المدى**

P.C.: **Al–Mada**

الطبعة الأولى: **2021**

First Edition: **2021**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Al–Mada

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغـداد: حي أبـو نـؤاس - محلـة 102 - شـارع 13 - بنايـة 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800

+ 964 (0) 790 1919 290

بـيروت: بشـامون - شـارع المـدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 + 961 706 15017

+ 961 175 2616

دمشـق: شـارع كرجيـة حـداد- متفـرع مـن شـارع 29 أيـار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275

+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

لايجـوز نـشر أي جـزء من هـذا الكتـاب أو تخزين أيـة مادة بطريقة الاسـترجاع، أو نقلـه، على أي نحـو، أو بأية طريقة سـواء كانـت إلكترونيـة أو ميكانيكيـة، أو بالتصويـر، أو بالتسـجيل أو خـلاف ذلـك، إلا بموافقة كتابيـة من الناشر مقدّماً.

هذا الكتاب مسـؤولية الكاتـب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

بلال فضل

أم ميمي

إلى كل الأغاني الحلوة
التي هوّنت المشوار

جميع الشخصيات والأحداث والوقائع والأماكن والألفاظ الواردة في هذه الرواية لا علاقة لها بواقعنا الذي هو -كما تعلم- أرقى وأطهر وأجمل من أن ترد فيه مثل هذه الشخصيات والأحداث والوقائع والأماكن والألفاظ

لذا لزم التنويه.

في الطريق إلى أم ميمي!

تعودت حين أحكي الحكاية أن أقول إن ما أوصلني إلى العيش مع أم ميمي: ثديان بولنديان لهما حَلَمَتان فريدتان، رأيتهما في فيلم للكبار فقط، ذات ليلة شتاء بدأت جميلة ثم قَلَبت بغمّ. ومع أن ذلك ليس ما حدث بالضبط، لكنه لم يكن بعيداً عما حدث بالفعل.

يومها، كنت أتصور أن يد الأقدار «رمتني عن قوسِ مِحنَةٍ»، حين اختارت لي من بين آلاف الشقق والغرف والمطارح المفروشة في شوارع وحواري القاهرة والجيزة، أن أسكن في غرفةٍ بلا باب، في شقة بلا روح، مع امرأة غريبة الأطوار، لكنك تحتاج أحياناً إلى ربع قرن من الزمان، لتدرك كم أحسنت إليك الأيام، حين اختصتك بأكثر تجاربها عبثية.

بدأت الحكاية في خريف عام 1991، بعد أن أتاح لي مجموع درجاتي في الثانوية العامة فرصة الالتحاق بكلية الإعلام جامعة القاهرة، وإذا كنت لا تعلم، فقد كان يلزم للالتحاق بكلية جامعية، أن تسجل رغباتك في الكليات المناسبة لمجموع درجاتك في استمارة يطلقون عليها اسماً شاعرياً لا علاقة له بمضمونها: «استمارة الرغبات»، ليختار لك منها مكتب التنسيق الجامعي الكلية المتاحة طبقاً لإجراءات لا يعلمها إلا المسؤولون في وزارة التعليم العالي، ولا يُشكِّك فيها أحد ترييحاً للدماغ.

كانت لدي وقتها تصورات مشوّشة عما يجب أن أدرسه، كانت رغبتي الأولى في الاستمارة دراسة الإعلام في كليته الوحيدة وقتها بجامعة القاهرة، لكن الرغبة الثانية كانت الالتحاق بكلية الهندسة قسم بترول، والثالثة الالتحاق بكلية الآثار، أما الرابعة فكانت دراسة الاقتصاد والعلوم السياسية.

لم أكن واثقاً تماماً في أي من تلك الرغبات المتضاربة، لكن رغبتي الأكثر وضوحاً كانت مفارقة جحيم العيش في ظل أبي بأي شكل، بعد أن ضبطت نفسي متلبساً بإشهار سكين المطبخ في وجهه، صحيح أن ذلك حدث في الحلم، لكنه كان مؤشراً خطيراً على قرب نفاد صبري من عنفه وقسوته.

في الوقت نفسه، كان لدي حُلم عمّا يجب أن أفعله في حياتي، حلم أكثر وضوحاً من رغبات الاستمارة، لكني لم أكن أجرؤ على إعلانه لأسرتي، وهو دخول دنيا الفن ممثلاً أو كاتباً أو مخرجاً أو مطرباً أو كل ما سبق، وكنت أظن أن إقامتي في القاهرة للدراسة في كلية يرضى عنها أهلي، ستتيح لي تحقيق ذلك الحلم، بعد أن ألتحق سراً بمعهد السينما أو بمعهد الفنون المسرحية للدراسة المسائية في أحدهما أو كليهما، ولم يكن لدي تصور محدد لتحقيق ذلك الحلم، لكن ذلك لم يمنعني من الاستسلام لنشوته.

كانت أمي قد أدركت أن خروجي من البيت لأبتعد عن الصدام المتكرر مع أبي، سيكون راحة للجميع، خاصة أن أجواء البيت المسمومة بدأت تؤثر على إخوتي الأصغر مني، لكنها كانت ترى أنه من الأفضل لي ما دمت راغباً في دراسة الإعلام، أن ألتحق بقسم الإعلام بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، وقد كانت له سمعة معقولة وقتها، وكان الالتحاق به سيبقيني في كنف أسرتها في الإسكندرية، بدلاً من إقامتي وحيداً في القاهرة التي كانت ستزيدها قلقاً علي لديها ما يكفي منه ويفيض، خاصة أن الوقت كان قد فات على اللحاق بمكان متاح في المدينة الجامعية في القاهرة، ولذلك رأت أن إقامتي مع جدتي وأخوالي في الإسكندرية، ستعفيني من الاحتياج إلى الإقامة في شقق الطلبة، ولن يحرمني مما أستحقه من أكل بيتي آمن دائماً وشهي أحياناً، وهدوم منتظمة الغسيل والمكوى، وفرص مضمونة للحُموم المتكرر، والجلوس الآمن على قعدة تواليت نظيفة، لكنني رفضت ذلك وفضلت مفارقة كَنَف وكنيف أهلي في الإسكندرية، لأطارد أحلامي في القاهرة، حتى لو عشت فيها عيشة المغتربين المضنية.

حين تعقّد الخلاف مع أبي بسبب اختياري لكلية لم يرض عنها، بدلاً من دراسة الطب أو الهندسة، أقسم أنه لن يساهم في الإنفاق على دراستي بمليم، متصوراً أنني أجبن من تفضيل العيش الضنك على العيش في ظله، لكنني

قررت تحدي قراره بالإنفاق على نفسي في العام الدراسي الأول، معتمداً على مخزون نقود ادّخرتها من عملي على مدار سنة كاملة بعد تخرجي من الثانوية العامة، على أمل أن أنجح بتفوق في عامي الدراسي الأول، فأحصل حينها على منحة دراسية تمكنني من عبور باقي سنوات الدراسة بسلام، ولم أكن أتعامل مع ذلك القرار بوصفه اختياراً شجاعاً أو طائشاً، بل كنت أعتبره مسألة حياة أو موت.

جعلني ما استمعت إليه من آراء وفتاوى بعض المعارف طيلة الفترة التي سبقت الانتهاء من إجراءات التقديم في الجامعة، أوقن أن القبول في المعهد العالي للسينما أو المعهد العالي للفنون المسرحية، سيكون من رابع المستحيلات بدون واسطة جامدة من داخل الوسط الفني، ولذلك زاد تفضيلي لوضع كلية الإعلام على رأس اختياراتي، بعد أن استهوتني نصيحة صديق بدا مطلعاً على خبايا الأمور، بأن ألتحق بقسم الإذاعة والتلفزيون في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، بوصفه باباً خلفياً مضموناً لدخول عالم السينما بعد تخرجي، لأن هناك صلة قرابة بين دراسة التلفزيون ودراسة السينما، ستساعدني على دخول عالم السينما بشكل أيسر في المستقبل، وهو ما اتضح خطله وهطله فيما بعد.

ولأنني أوقن أن الإنسان منّا يمكن أن يستغني عن أموال ودعم أبيه، لكنه أضأل من أن يستغني عن دعوات ورضا أمه، فقد صارحت أمي بما أنتويه قبل أن أكتشف متأخراً أن صراحتي لم يكن لها أي لازمة، فقد كان التخصص يبدأ في السنة الثالثة من الدراسة، ولذلك لم ينُبني من صراحتي المتسرعة، إلا حلفان أمي بالله العظيم ثلاثة، أنها ستقاطعني «القاطوعة الفاصولة»، إن لم أختر قسم الصحافة وحده دون غيره من أقسام كلية الإعلام، لأنه القسم الأبعد عن غضب الله ومغويات الدنيا التي لم يكن لديها تصور واضح عن طبيعتها، لكنها كانت متأكدة من ضعفي أمام تلك المغويات، ولكي يطمئن قلبها إلى أنني لن أطاوع همزات الشياطين بعد ابتعادي عنها، جعلتني أقسم على ذلك وأنا أضع يدي على المصحف قبل أذان مغرب ليلة النصف من شعبان، لتضمن أنني سأخاف من عواقب الحنث باليمين وأنا صائم ومتوضئ، ومع أنني لم أكن في الحقيقة صائماً ولا متوضئاً، فإنني عقدت

العزم على أن أبرّ بقسمي لها، وإن كنت قد عزمت على العمل في الصحافة الفنية مع أول فرصة تسنح لي، لعلي أدخل من منفذ الحوارات الصحفية مع الفنانين، إلى عالم السينما الذي «لحس دماغي» طبقاً لتشخيص أمي الذي كان دقيقاً للأمانة.

في فترةٍ حافلةٍ بالمواجهات مع أبي الذي كان يراهن على فشلي في تحقيق ما أنتويته، كان لدى أمي الكثير لتقدمه لي، أهمه دعواتها التي لا تنقطع والمغمّسة بالدموع التي لا تنضب، ومع أنها لم تكن قادرة على تقديم مساعدات نقدية سخية، فإنها قامت بتقديم مساعدات عينية أهمها بدلتان شتويتان، الأولى كحلية اللون، والأخرى يمكن أن تعتبر أقرب لون متاح لوصفها هو اللون الكمّوني، مع أن تابل الكمّون كان أكثر اتساقاً في مظهره، وقد ظنّت أمي أن البدلتين تليقان بمقام جامعة القاهرة، التي كانت بالنسبة لها كطالبة درست في السبعينات في جامعة الإسكندرية، قُدساً عالي المقام، يستحق الذهاب إليه بالبدلة والكرافتة، ولأنني فشلت فشلاً ذريعاً في تعلم ربط الكرافتات، فقد اكتفت أمي بمنحي البدلتين «حاف» دون كرافتات، وأهدتني معهما قميصين ناصعي البياض اتضح فيما بعد أنهما سريعيّ الكرمشة، وجزمة سوداء ذات كورنيش تزيّنه نقوش مربكة، قامت بتفصيلها في ورشة لصناعة الأحذية تقع في حي «المكس» السكندري، كانت تتعامل معها منذ سنوات، لأنها لم تكن تجد مقاسات ملائمة لقدميّ الضخمتين في محلات الأحذية العادية.

كان ذلك الدعم العيني سبباً في طلوع عيني فيما بعد، من فرط السخرية التي انهال بها عليّ زملائي، ومع ذلك اضطرتني الميزانية المحدودة لأن أظل وفياً لكسوة أمي التي لم أكن أملك غيرها سوى قميصين، أولهما أخضر تشوبه خطوط طولية سوداء، وثانيهما أزرق تقسمه مربعات بيضاء، كنت قد حصلت عليهما كـ«معونة شتاء غير مشروطة» من زوج خالتي الذي كان يشترك معي في ضخامة الجسد فقط، وقد نالهما من تريقة الصِّحاب ما نال البدلتين، وهي تريقة لم تتوقف إلا بعد أن عرفت الطريق إلى وكالة البلح بفضل رجل لعين سآتيك بذكره فيما هو آت.

قبل أيام من «نزولي» الرسمي إلى القاهرة، لألحق بالدراسة التي كنت قد

تأخرت عنها ثلاثة أسابيع، كشفت أمي عن معونة أكثر أهمية كانت تحضرها لي سراً، ولم تعلنها إلا بعد أن انتهت من كافة ترتيباتها. كانت تلك المعونة عرضاً لا يمكن رفضه، بأن أسكن في شقة بمدينة نصر يسكنها طلبة بجامعة الأزهر، من بينهم ابن أخت صديقة لها، كانت أمي قد زاملتها في دراستها الجامعية، وكانت هي التي دلتها على سكة تلك الشقة، التي بدت لأمي منقذة لي من التلطيم في بحر القاهرة الغريق، ومطمئنة لها على نجاتي من مصائد الشيطان المنصوبة في أرجاء القاهرة، لأن الساكنين في تلك الشقة كانوا «شباب محترم ومتدين وعارفين ربنا كويس وكلهم من الأزهريين حفظة كتاب الله وهيقوّوك لو الشيطان زيّن لك طريق النجاسة»، وأنا والشيطان استمعنا إلى أمي بهدوء شديد، وكتمنا الضحك احتراماً لمشاعرها، فقد كنا نرتب منذ فترة لما ننوي فعله في «طريق النجاسة» بمجرد استقرارنا في القاهرة.

كنت أنا وست الكل خلال نزولاتنا السابقة إلى القاهرة لإنجاز أوراق قبولي بالكلية، قد فشلنا في العثور على سكن مناسب قريبٍ من جامعة القاهرة، فلم نكن نعرف أن بحثنا كان يجب أن يبدأ منذ مطلع فصل الصيف، حين تخلو شقق الطلبة من ساكنيها العائدين إلى بيوت أهاليهم، برغم أن بعضهم كان يحجزها لنفسه طيلة الصيف، حتى لو قام مالكوها برفع قيمة الإيجار.

لم تكن ميزانيتي تسمح بالسكن في شقة مفروشة بمفردي أو في غرفة غير مفروشة، ولذلك حصرنا نطاق البحث منذ البداية في الغرف المفروشة اختصاراً للوقت والجهد، فوجدنا غرفاً متاحة في شقق جميلة وقريبة من الجامعة، لكن سعرها كان أغلى بكثير من طاقتي، ووجدنا غرفاً متاحة في شقق معفّنة دلنا عليها سمسار اسمه المعلم ذهني، لم أعد أذكر من الذي نصح أمي باللجوء إلى محله المختار الكائن في قهوة بائسة تقع في ممر متفرع من ميدان الجيزة، لكنني أذكر أنه كان شخصاً مثيراً للريبة، ليس لأن عينه اليسرى كانت عوراء، فقد عرفت عوراً ثِقات بعد ذلك، وليس لأنه لم يكن يهتم بنظافته بشكل لا تخطئه الأنف، بل لأن مظهره ومَخبره كانا يجعلانه أقرب إلى مُخبر منه إلى سمسار، وقد اتضح فيما بعد أنه كان مخبراً يتخذ من السمسرة غطاءً لاصطياد زبائن لضباط الجيزة.

أصر ذهني على أن يتقاضى منا مئة جنيه كعربون قبل أن يرينا أي شقة،

قائلاً إن ذلك العربون شرط إثبات جدية، لأنه لا يحب اللف على الفاضي، وأنه سيخصمه من عمولته التي تعادل إيجار شهرين من إيجار الغرفة التي سيعثر عليها لنا «زي شكّة الدبوس»، وحين سألته أمي عما سيحدث للعربون إذا فشل في العثور لنا على غرفة في أسرع وقت، رسم ابتسامة هازئة على شفتيه، وطلب منها بعد لحظات صمت أن تسأل عنه كويّس، لأنها لو فعلت لما سألته سؤالاً كهذا، وهو الذي يعرف شقق الجيزة ومطارحها كما يعرف بطن يده.

لم يطل الوقت، حتى اكتشفنا أن ذهني السمسار كان هجاصاً عتيداً، وأن أمي لو كانت قد سألت عنه كويّس، لوفرنا المئة جنيه التي خسرناها، لأنه اختار لنا مجموعة منتقاة على الفرّازة من أوسخ وأحطّ الشقق المفروشة الموجودة في المنطقة المحيطة بميدان الجيزة، ومع أنني لم أكن متشدداً في مواصفات الغرفة التي أريد أن أسكن فيها، فإنني وافقت أمي في رفضها القاطع لأغلب الشقق التي دخلناها، لكنني اختلفت معها بسبب رفضها لغرفة منفردة مفروشة تقع فوق سطوح عمارة تقع خلف معهد الرمد الملاصق لكوبري عباس، لأنها أقسمت أنها لن تسمح لي «وهي عايشة» بالعيش فوق السطوح أو في بدرون تحت الأرض، وأن سُكنة مثل هذه لن تجلب لي فقط المرض مع دخول الشتاء، بل ستجلب لها المرض قبل ذلك من فرط حزنها على حالي، ولم تكن تعلم أنني بعد أقل من عامين سأسكن «وهي عايشة» على بعد خطوات من تلك الغرفة، ولكن في شقة أسوأ حالاً من الذي تبطّرت عليه، وأنني سأسكن قبل ذلك في ما هو ألعن وأضلّ منها.

في المرة قبل الأخيرة التي ذهبنا فيها مع ذهني لمعاينة المزيد من الشقق القميئة، كانت أمي هادئة في إعلان رفضها لكل اختياراته، ولم أكن أعرف أن سبب هدوئها هو الوعد الذي تلقته من صديقتها بحسم موضوع شقة الشباب الصالح، والتي أخّرت إطلاعي على تفاصيلها، بسبب بعدها عن جامعة القاهرة، على أمل أن يجد لنا ذهني شقة معقولة الوحاشة في محيط الجامعة أو ميدان الجيزة، وإن كنا قد اقتنعنا بعد ثاني مرة أنه يتعمد اختيار الشقق التي يضمن نفورنا منها، لكي يضرب على مقدم أتعابه، خاصة أنه لم يكن يتعب نفسه بالذهاب معنا إلى شوارع بعيدة عن مقهاه الأثير.

تأكد لي ذلك حين ذهبت إليه لآخر مرة منفرداً، في الوقت الذي ذهبت أمي لزيارة صديقتها للاتفاق النهائي على تفاصيل إقامتي في «شقة الشباب الصالح»، فقابلني مقابلة ناشفة حين عرف أنني سأذهب معه لتفقد الشقق لوحدي، وقال لي بضيق: «طب ليه تتعبني معاك طالما ماما هي اللي هتختار في الآخر»، وحين قلت غاضباً إنني وحدي الذي أملك قرار اختيار الغرفة التي أسكن فيها، لأنني الذي سأدفع قيمة إيجارها، أطلق ضحكة مستفزة، ثم ترك شيشته ونهض ليصحبني إلى غرفة أحقر من كل ما سبق أن رأيناه، تقع على سطح عمارة تقع في شارع يحمل اسم «عبود الزمر»، يقع على بعد خطوات من ميدان الجيزة، وحين رآني أنظر مذهولاً إلى اللافتة التي تحمل اسم الشارع، فهم استغرابي وقال لي إنهم لم يسموا الشارع على اسم قاتل الرئيس السادات، بل على اسم أحد أبطال حرب أكتوبر، عرفت فيما بعد أنه كان من أبناء منطقة ناهية في محافظة الجيزة.

لكي يحبّبني ذهني في الشقة قال بحماس غير مفهوم إن العمارة تقع على بعد خطوات من مطعم (المانش) للفول والفلافل الذي قال إنه مملوك لتمساح النيل السباح الشهير عبد اللطيف أبو هيف الذي اشتهر بعبوره المانش في زمن بعيد، وأنه يأتي من حين لآخر لتفقد المطعم ويمكن أن أحظى بمقابلته، فهززت رأسي متصنعاً الانبهار مع أنني لم أكن قد سمعت عنه من قبل، ثم أضاف بنفس الحماس قائلاً إن العمارة التالية بها أقدم فرع لمطعم المنوفي الكبابجي الذي لم أكن أعرف وقتها أنه مطعم شهير، وحين سألته ساخراً عن علاقتي كساكن محتمل لتلك الغرفة بالمطعمين، وهل سأحصل على خصم منهما إذا سكنت في الغرفة، صوّب لي نظرة غاضبة من عينه السليمة، وقال بغلظة: «ابقى سلم على ماما»، ثم تركني ومشى، وحين لحقت به معلناً غضبي لأنه قام بتضييع وقتي باصطحابي إلى شقة فوق السطوح، مع أننا أبلغناه قبلها بأن السكن فوق السطوح أمر مستبعد تماماً، وطلبت منه أن يعيد لي العربون الذي أخذه، لأنه لم يكن أميناً في أداء عمله، لم يكلف نفسه عناء النظر إلي بأي من عينيه، وتركني واتجه إلى باب السلم، وقبل أن ينزل التفت لي وقال بعد شخرة قصيرة: «ابقى خلي ماما تيجي تاخدهم».

حين التقيت بأمي في محطة «باب الحديد»، لنستقل القطار عائدين إلى الإسكندرية، لم أبلغها طبعاً بما قاله ذهني، ولم تحضر سيرته في حوارنا، لأنها بادرت إلى إبلاغي بانتهاء الاتفاق على موضوع شقة الشباب الصالح، وحين أخبرتني بالمبلغ الذي سأدفعه في إيجار غرفتي فيها، غمرتني فرحة جاهدت في إخفاء آثارها، لكيلا أثير شكوك أمي، فقد اكتشفت أن ما كنت سأدفعه في تلك الغرفة، أقل بحوالي سبعين جنيهاً مما كنت سأدفعه للسكن في أي شقة قريبة من جامعة القاهرة. صحيح أن «شقة الشباب الصالح» كانت تقع في مدينة نصر البعيدة عن جامعة القاهرة مسافة ساعة من الزمن أو أقل قليلاً، وأن قدراً مما كنت سأوفره من فلوس إيجارها سيضيع على المواصلات، لكن الأهم أنني أصبحت أمتلك فائضاً مالياً شهرياً، كان سيمكنني من تحقيق حلمي بحضور بعض أفلام مهرجان القاهرة السينمائي الدولي الذي كان سيبدأ في شهر نوفمبر، وكان بفضل صمود رئيسه الكاتب سعد الدين وهبة في وجه الرقابة على المصنفات الفنية، قد نال سمعة جابت الآفاق، وبلغت كل من بلغوا سن الضياع من أمثالي، ممن كانت فكرة رؤية المشاهد العارية على شاشة السينما تمثل بالنسبة لهم حدثاً فريداً.

حين حان الموعد المرتقب لنزولي إلى القاهرة لبدء الدراسة، رفضتُ عرض أمي بأن تذهب معي إلى «شقة الشباب الصالح» للتعرف عليها والسلام على رفاق سكني فيها قبل سفرها إلى الكويت، للحاق بعملها الذي أخذت إجازة منه من أجل خاطري، وقلت لها غاضباً إن ذلك سينتقص من منظري أمامهم، وسيظهرني بمظهر العيل النتّوس الذي تصحبه أمه إلى الحضانة، فتفهمت أمي موقفي، وأهدتني وهي تودعني جهاز كاسيت ناشيونال وبعض شرائط القرآن الكريم، وكتاب «أبلة نظيرة» لطبخ أشهى الأكلات، الذي أهدته لها أمها قبل زواجها، وجاء الوقت لتورثه لي لكي يساعدني على أداء واجباتي في شقة الصالحين، التي قالت لها صديقتها إن شبابها يتقاسمون مسؤوليات الطبخ وغسيل الأطباق وتنظيف الشقة.

وبينما كانت ست الكل تسهب في نصائحها ووصاياها، كنت مشغولاً بالتفكير في خبر قرأته في صحيفة اليوم عن قرار إدارة مهرجان القاهرة برفع أسعار تذاكر عروض الأفلام إلى 5 جنيهات، وهو ما كان سيحد من

قدرتي على دخول أفلام المهرجان المليئة بـ«الكاسيات العاريات المائلات المميلات كأسنان البُخت»، طبقاً لتوصيفات خطباء المساجد الغاضبين، التي كانت تجعلني أذهب إلى بعيد في تفسير أسنان البُخت وتخيله، لأكون ربما الإنسان الوحيد الذي كانت سيرة «أسنان البُخت» تثيره جنسياً، قبل أن يعرف ما تعنيه أسنان البُخت.

لا أريد أن أضيع وقتك في سرد تفاصيل إقامتي القصيرة في شقة مدينة نصر البضينة، ولا في سرد حكايتي مع مهرجان القاهرة السينمائي الدولي وأفلامه الساخنة الهاربة من مقص الرقيب، فما يهمني الآن من حكاية الشقة والمهرجان، هو المشهد الختامي الذي أفضى بي إلى شقة «أم ميمي»، بعد أن تعرضت للطرد من شقة الصالحين، دون أن أهنأ بتحقيق حلمي بدخول كل ما تمنيته من أفلام المهرجان، لأنني ضُبطت متلبساً بعد أول مرة دخلت فيها فيلماً بولندياً «ساخناً» في سينما «روكسي»، التي كانت الأقرب إلى محل إقامتي بمدينة نصر، ولم يكن من ضبطني إلا واحداً من أولئك «الصالحين»، الذين سكنت معهم في تلك الشقة الواقعة بإحدى عمارات شارع خضر التوني المتفرع من شارع يوسف عباس الملاصق لبوابة ستاد القاهرة والقريب من نادي الزهور.

لم أكن أعلم أن ذلك الشاب «الصالح» يحب التردد من حين إلى آخر على مطعم مجاور لسينما روكسي بعد أن ينتهي من مذاكرته مع زميل له يسكن في روكسي، ولا أن مشاهدته لي بالصدفة في تلك الليلة، ستكون سبباً في إنهاء إقامتي في تلك الشقة التي كان رخصها نعمة مهداة من الله، أضعتُها حين اتبعت خطوات الشيطان إلى المهرجان.

لم أكن أعلم أيضاً أنني قد ضُبطت ليلتها متلبساً، إلا حين عدت إلى «شقة الصالحين» قبيل منتصف الليل وأنا أمشي الهوينى، محاولاً تثبيت ملامح حَلمتي ثديي البطلة البولندية، اللتين بدتا فريدتيّ التكوين واللون، بالنسبة لشاب لم يكن رصيده الشحيح من أفلام السكس ومجلاته قد هداه إلى وجود ذلك التنوع الكوني الواسع في الحَلَمات، التي كان يظن أنها خلقت جميعاً من «استامبة واحدة»، لكن تلك الملامح «الحلماتية» الوردية المائلة بشكل مدهش، والتي حرصت على تثبيتها في الذاكرة، طارت فور رؤيتي

لحقيبتي مرزوعةً إلى جوار جهاز الكاسيت أمام باب الشقة، لأفهم بعد أن طرقت الباب، بأن سر رزعتهما هناك، أنني أمسيتُ مطروداً من جنة الشباب الصالح، منذ أن عاد ذاك الأخ إلى الشقة، وحكى لإخوته كيف رآني أخوض معركة ضارية أمام شباك تذاكر سينما روكسي، كأنني أرملة تخوض معركة في طابور العيش لتطعم أيتامها، على حد تعبيره الغاضب.

كل ذلك أبلغه لي من وراء الباب بصوت حاسم متهدج، طالب الطب الأخ الدكتور عبد الجواد «أمين الشقة» كما كان يلقبه الإخوة الصالحون، وهو لقب كان يستفزني طيلة الفترة التي أقمتها في الشقة، مع أن الشقة كانت حافلة بمثيرات الاستفزاز وموجعات المحاشم، ليزول قدر لا بأس به من شعوري بالمرارة الناتجة عن طردي، حين ألقيت من خلف الباب كلمة احتجاجية على ذلك الطرد المهين، الذي تم دون مواجهتي بفعلتي أو حتى «استتابتي» عنها، وكان مما قلته في نهاية كلمتي عبارات غاضبة خصصت بها الأخ عبد الجواد، تحاشيت فيها شتيمة الأم، لكي لا يبلغ ذلك أمي عبر صديقتها فتغضب مني، لكنني لم أفوّت فرصة السخرية من لقبه الأثير قائلاً: «وبعدين إيه حكاية أمين الشقة دي يا سي خرا.. تكونش فاكر نفسك أمين الأمة يا معرّص.. هي دي شقة أصلاً يا شراميط.. ده إنتو عميتوني فِسا وشخير وريحة شرابات معفّنة.. يلعن أبوكو على أبو سُكنتكو الخرا»، بالإضافة إلى شتائم متفرقة مما لا تقال في هذا الموقف بالذات، بل تُقال في كل المواقف التي يجمع الإنسان فيها بين شعوره بالمرارة وقلة الحيلة.

لكن مفعول شتائمي المريح للنفس لم يدم طويلاً، تماماً كأي مخدر موضعي، وتكرارها بيني وبين نفسي لم يساهم في تدفئتي حين لفحني البرد، وأنا نائم على بسطة سلم العمارة تحت شباك مكسور الزجاج، تتدفق منه صواريخ الهواء البارد، دون أن يكون لدي ما ألتحفه سوى البدلتين الحيلة، ولا ما أفترشه سوى كتبي ومجلاتي، التي تركوها بجوار شنطتي كاملة العدد، وكأنهم ما صدقوا الخلاص منها، لما كانت تحفل به من صور «نجمات السينما الكاسيات العاريات المائلات المميلات كأسنان البُخت».

مرت ساعة أو ساعتان، قبل أن يغلبني النوم من فرط التعب، بعد أن تآلف جسدي مع البرد، وكنت قد بدأت يا دوبك في استعادة ملامح الحلمتين

البولنديتين اللتين كنت أظنهما لم يُخلق مثلهما في البلاد، لكن تلك الملامح الفاتنة غامت قبل لحظات من اكتمال تشكلها، حين فوجئت بيدٍ تمتد نحوي لتهزني وتوقظني. كانت تلك يد أحد شباب الشقة الصالحين، الذي كان يخفي تعاطفاً مع الطالحين من أمثالي، لأن لديه أخاً أصغر يفوقني طلاحاً وصرمحة، ولذلك لم ترضه بهدلتي، فقرر أن يدلني على غرفة متاحة في شقة بأحد المناطق المتفرعة من شارع الهرم، تملكها سيدة عجوز قال إن اسمها أم ميمي، كان قد سكن فيها العام الماضي، بعد أن دلّه عليها واحد من بلديّاته كان قد سبقه إليها خلال دراسته في جامعة القاهرة، لكنه لم يستمر في السكن هناك، لأن الشقة كانت بعيدة جداً عن مقر دراسته في جامعة الأزهر، وكل ذلك حكاه لي بصوت خفيض وهو يتلفت حوله حرصاً على ألا يكتشف بقية الشباب الصالح تعاطفه مع «تفاحة فاسقة يمكن أن تفسد بقية القفص»، طبقاً لما قاله «أمين الشقة» في حيثيات حكم طردي.

قال الشاب الصالح المجدع إنني محظوظ لأن الغرفة التي سكنها لفترة قصيرة في العام الماضي ما زالت خالية، كما علم من أم ميمي التي اتصلت به قبل عشرة أيام، وطلبت منه أن يدلها على ساكن، بعد أن ظلت الغرفة التي تؤجرها خالية منذ بداية العام الدراسي، وحين طلبتُ منه أن يعطيني رقم هاتفها لأتصل بها في الصباح الباكر وأتفق معها على موعد، قال إن الشقة ليس فيها تليفون، لكن هناك بقالاً ابن حلال يجاورها، اسمه عم سيد، يمكن حين أسكن في الشقة أن أعطي رقمه لمن أردت وسينادي لأرد على المكالمة مقابل مبلغ زهيد سيتفق معي عليه، وطمأنني أن أم ميمي لا تغادر الشقة إلا للشديد القوي، وتعود إليها سريعاً، ولذلك لن تكون مهمة الوصول إليها صعبة، ثم منحني عنوان الشقة مكتوباً في ورقة، وحين قلت إني أخاف من خبط المشوار على الفاضي، لأجد أن الغرفة قد تم تأجيرها، خصوصاً أن عشرة أيام قد مضت على مكالمتها له، قال لي بوضوح إنني حين أرى الشقة، سأدرك أنها ليست مطمعاً لأحد، ولا يمكن أن تكون على قائمة اختيارات أحد إلا إذا كان مهدداً بالنوم في الشارع مثلي، وقد أقلقني ما قاله بالطبع، لكن قلقي لم يطُل، حين سمعت رقم إيجار الغرفة، فقد كان أقل بقليل من الرقم الذي كنت أدفعه في شقة الشباب الصالح، وأقل بكثير من أي شقة

لا تبعد عن جامعة القاهرة أكثر من ربع ساعة كما قال لي الشاب المجدع، الذي لم يكن دقيقاً في معلوماته، كما علمت بعد فوات الأوان، وبعد عبوري اليومي لنفق «نصر الدين» في أول شارع الهرم، الذي يُهزم ويطلع دين من يضطر لعبوره مرتين كل يوم.

لم أكن أحتاج إلى حسابات طويلة لأدرك أنني بالانتقال إلى تلك الشقة التي سبقتها سمعتها السيئة، سأوفر كل يوم نصف جنيه مرة واحدة، من خلال فرق السعر بين تذكرة «ميني باص نِمرة 39 ألماظة – جامعة القاهرة» البالغ ثمنها نصف جنيه، وبين تذكرة أي أتوبيس بين الهرم وجامعة القاهرة يبلغ ثمنها ربع جنيه، وبالطبع كنت أعقل من أن أفكر في الأتوبيسات التي يبلغ سعر تذكرتها عشرة قروش، لأن تجارب من ركبوها لم تكن تشجع قط على اختيارها.

كل هذا كنت مشغولاً باستحلاب تأمله، وقد نشرت الفرحة دفئها في عروقي، لأواصل الدعاء للصالح المتواطئ طيلة الليل، بأن يقذف الله في قلبه حب السينما، ويلحقه برواد مهرجان القاهرة السينمائي الدولي قبل أن تنتهي دورته الحالية، لعله يحظى في أحد أفلامه بفاتنة رجراجة الثديين مشدودة الردفين فريدة «الحلمتين»، تؤنس ملامحها وحشة قلبه، وتُطَرِّي «نشفان» معيشته وسط أولئك الغلاظ، الذين لو ساكنهم ملاك صالح لطفش من ركب الفضيلة، وانضم إلى جيش إبليس طائعاً مختاراً.

مع بزوغ شمس النهار، ركبت أول (ميني باص) يمر في شارع يوسف عباس، ليحملني إلى محطته الأخيرة في جامعة القاهرة، لا لأذهب كما تعودت كل صباح، إلى مبنى الكلية الكائن في معهد الإحصاء في شارع الدقي، الذي كان طلبة الفرقة الأولى من كلية الإعلام قد نُفوا إليه، في تلك الأيام من عام 1991 التي لم يكن للكلية فيها بعد مبنى رسمي، ولكن لأركب مواصلة أخرى تذهب بي إلى شارع الهرم، حيث مَثُلت لأول مرة في حضرة أم ميمي، التي وجدتها مرزوعة في الشقة كما قال لي الشاب المجدع، الذي اتضح أنه لم يكن دقيقاً في وصفه للمساحة التي سأسكنها بأنها «غرفة»، فلم يكن من الدقيق وصفها بالغرفة أو بالحجرة أو حتى بالمطرح، فقد كانت أشبه بالـ«حُقّ» حَقّاً وصدقاً، بل هي إن جئت للحق، «حُقّ» يضمه «حُقّ» أكبر

قليلاً، هو شقة أم ميمي المكونة من «حُقّين» وفراغ مستطيل تافه ينتحل صفة الصالة، و«زنقور» تعيس يهين أحقر مطابخ الأرض أن يشترك معها في وصفه بالمطبخ، و«شِبه» حمّام مخلخل البلاط لا يجعله جديراً بتسميته بالحمّام إلا كونه ينضح بروائح ثقيلة الوطأة.

لكنك برغم كل هذا الوصف الانفعالي، الذي لا يوفي حقارة المكان حقها اللائق من الاحتقار، لن تستغرب لو قلت لك إنني فور رؤيتي للحُقّ الذي سأسكنه، وقبل أن أكثر من الحديث مع أم ميمي، كنت قد دفعت لها إيجار شهرين مقدماً، لأن الشاب المجدع كان قد أحسن إلي، حين هيّأني نفسياً للتعامل مع وضاعة الشقة، وحين نبّهني إلى حقيقة لم أكن سأغفل عنها، وهو أنني لست في وقت كهذا حِمل المخاطرة بالتبطر على تلك الغرفة، لأن البديل عنها هو النوم في الشارع أو العودة إلى الإسكندرية أجر أذيال الخيبة، ولذلك قررت أن أرضى بتلك الغرفة الحقيرة، على أمل أن أجد بديلاً عنها في إجازة نصف السنة.

ضحكت أم ميمي حين سألتها عما إذا كان هناك عقد لأقوم بإمضائه، وطلبت مني أن نقرأ الفاتحة لأنها «أبرك» من أي عقد، وقالت إنها لن تطلب مني «شهر تأمين» كما يفعل غيرها، مفسرة ذلك بقولها: «أنا هآمنك على نفسي يا ابني.. يبقى آخد منك تأمين إزاي»، ثم نبهتني إلى أن ابنها البكري ميمي يسكن معنا في الشقة، لكنه يأتي للبيات فيها فقط، بعد أن ينهي عمله كل يوم، لكن ميمي يعرف جيداً بحكم التجارب السابقة أن دخول غرفتي سيكون حصرياً لي، ومع ذلك سيكون من حقي أن أحظى ببهجة الجلوس في الصالة القميئة متى أردت، معتذرة عن عدم وجود تلفزيون في الشقة لأنها لا تحب الوشّ ووجع الدماغ، وأنها تفضل الاستماع إلى إذاعة القرآن الكريم طيلة اليوم، ثم ألقت نظرة ممتعضة إلى جهاز الكاسيت المستقر إلى جوار الشنطة، وطلبت مني أن أحرص على خفض صوته حين أقوم بتشغيله، لأن صوت الأغاني يدخل الفقر إلى البيوت ويطرد منها الملائكة، «خصوصاً أغاني اليومين دول اللي كلها خبط ورزع».

كانت الدقائق التي جمعتني بأم ميمي قد جعلتني أرتاح إليها، فقد بدت لي منذ النظرة الأولى سيدة طيبة، ربما لأنني كنت أحتاج إلى أن أشعر

بذلك، وربما لأن وجهها الملظلظ كان بشوشاً وهي ترحب بي، وأنها حين ضحكت زاد وجهها لطفاً وبشاشة، أو ربما لأنها كانت «تزكّ» قليلاً حين تمشي، وتكحّ من حين لآخر، وهما تفصيلتان امتزجتا مع لقب «أم» الذي تحمله، ومع ذوقها الغنائي الكلاسيكي، فساهم ذلك المزيج في شعوري بالارتياح إليها أكثر.

لم يكن الوقت مناسباً لمناقشة تصورات أم ميمي عن الفقر والبيوت التي تستنظفها الملائكة وتدخلها، فطمأنتها إلى أنني سأحرص على ذلك كلما قمت بتشغيل الكاسيت أو الراديو، ومن باب فتح أي كلام ودود معها، قلت إنني لا أملك إلا شرائط قرآن أهدتها لي أمي مع الكاسيت، وشريطاً للست فيروز وآخر لسيد مكاوي، فطبطبت على كتفي ودعت لأمي وطلبت مني أن أسلم عليها إلى أن تلتقيها حين تزورني، ثم أثنت على ذائقتي الغنائية لأنها أيضاً تحب أفلام فيروز وأنور وجدي، وتحب الشيخ سيد مكاوي لإنه راجل كفيف وبركة، ثم طلبت مني أن أضع حاجتي في الدولاب الذي لم يكن يتخيّر في قبحه عمّا حوله، وقبل أن تخرج من الغرفة، التفتت مستدركة: «صحيح نسيت أقولك.. بلاش تفتح الشباك.. عشان الشارع ضيق وهيملا لك الأودة عَفَرة وتراب وناموس»، فقلت مخفياً صدمتي من الخنقة المقبلة إنني لست مهتماً بفتح الشباك خصوصاً في الشتاء، أما الصيف فما زال بعيداً حتى نعمل حساب الناموس، فابتسمت وقالت لي إن الناموس هنا لا يعترف بالفصول وإنه متوفر صيفاً وشتاءً، وبعد أن وضعت رجلها خارج الغرفة أضافت معلومة جديدة أكثر أهمية: «آه صحيح.. وبلاش تقفل باب الأودة.. عشان لو اتقفل هتتحبس في الأودة لغاية ما نلاقي نجار يكسر الباب.. أو ساعتها هتضطر تفتح الشباك عشان تنطّ منه للشارع»، وحين لمحت على وجهي خيبة أمل لم أتمكن من إخفائها هذه المرة، قالت بحنان مشوب بالعتاب: «إيه مالك؟ زعلان عشان الباب ما بيقفلش؟ يا سيدي ابقى اضرب عشرات في الحمام»، لتجمعنا بعد تلك العبارة الكاشفة عن فراسة مدهشة، ضحكة عريضة مشتركة غمّستها بشخرة واضحة، ضحكة تكررت كثيراً في ذلك «الحُقّ» الذي سأظل أحمله معي إلى الأبد.

هي أم ميمي مع أن ميمي
أصلاً ليس بميمي!

كانت شقة أم ميمي تقع في الدور الأرضي لبيت من دورين، هو أول بيت قبيح يصادفك على اليمين حين تنعطف من شارع الهرم نحو ذلك الشارع المريب، الذي لا يعلم أحد الملابسات التي أصبح فيها شارعاً، ولا من اختار أن يجعله الشارع الوحيد ربما في مصر، الذي لا يحمل اسماً محدداً، برغم أن شوارع مصر تحفل بأسماء تبدأ بشارل ديجول وباتريس لومومبا ولا تنتهي بابن زنبل الرمّال وابن سندر، مروراً بشارع عبد الحميد مصطفى وشارع مصطفى عبد الحميد، فضلاً عن شوارع الأعناب والنخيل والفواكه والثمار والأشجار وسائر الكائنات، إلا أن ذلك الشارع بلغ شأناً من الضِعَة لدى الدولة المصرية ممثلة في محافظة الجيزة فاختارت له أن يحمل اسم «شارع خلف كازينو إيزيس»، بس.

وبرغم أن مدخل الشارع أوسع بقليل وأعفن بكثير من فتحة شرج وحيد القرن، فإن ممثلي أقدم دولة في العالم، لم يمنحوه توصيف «عطفة» أو «زقاق» أو «حارة»، برغم أن هناك عطفات وأزقة وحواري في أحياء القاهرة والجيزة القديمة أوسع منه بكثير، واختاروا توصيفه بأنه «شارع»، لكنهم لم يسبغوا عليه شرف حمل اسم ما، بل ربطوه بذلك الملهى الليلي الكائن بمنطقة «حسن محمد»، الذي لم أتشرف حتى الآن بمعرفة دوره الذي استوجب إطلاق اسمه على تلك المنطقة المكتظة بالسكان والواقعة بين شارعي الهرم وفيصل، تماماً مثلما لم أفهم لماذا أطلقت اللجنة المختصة بتسمية الشوارع اسم «خلف كازينو إيزيس» على الشارع الذي يقع فيه

بيت أم ميمي، وهل كان ذلك انتقاماً ما قام به أحد الموظفين في حق أحد سكان الشارع.

لكن افتراض وجود انتقام لسبب أو لآخر، طرح لدي تساؤلاً عن الاسم الذي كان يحمله الشارع قبل حدوث ذلك الانتقام المفترض، بل وقبل بناء كازينو وملهى إيزيس الذي يعود تاريخ بنائه إلى الستينات. كان يستحيل طبعاً أن نتصور أن أحد مُلّاك الملهى الليلي قد قام بدفع رشوة لأعضاء اللجنة ليربطوا اسم الشارع بالملهى للأبد، فالشارع ليس أَمَلَة على الإطلاق، وإذا كان ينبغي دفع رشوة فغالباً ستكون لإزالة التشويه الذي يلحقه منظر الشارع بسمعة الملهى، الذي يقال إن مطرباً عملاقاً مثل محمد عبد المطلب شارك في إنشائه مع أحد أصهاره، وظل صوته يلعلع فيه حتى مات، وإذا ذكرنا أنفسنا أننا في نهاية المطاف نعيش في مصر، وعلى تخوم منطقة الطالبية التي لم تعرف المنطق منذ نهاية حكم الأسرة الفرعونية الخامسة والعشرين، وأن المسألة كلها لا تعدو أن تكون استسهالاً أو كسلاً، فلماذا لم يعترض أحد سكان الشارع عبر العقود الماضية على ذلك الاسم، أو يطلب تسمية الشارع باسم أقدم ساكنيه كما جرت العادة، إلا إذا كان هناك اتفاق جماعي بين الأجيال المتعاقبة من السكان على احتقار الشارع و«الاستعرار» منه؟

الغريب أنني حين توطدت علاقتي بسكان الشارع فيما بعد، لم ألمس لدى أحدهم ضيقاً بتلك التسمية العجيبة لشارعهم، حتى إن عم سيد البقال أحد أعيان الشارع وندوبه المميزة، فاجأني حين أثرت معه الموضوع بأن الحكومة تستحق الشكر، لأنها وفرت المجهود على سكان الشارع، حين منحته اسماً يحمل وصف موقعه، لأن ذلك يسهل مهمتهم في إرشاد القادمين إلى الشارع لسبب أو لآخر، بعكس سكان حي المعادي مثلاً، الذين يدوخ من يذهب إليهم دوخة الإبل، بسبب إطلاق أرقام على شوارعهم، وحين حاولت أن أشرح له نظريتي في احتقار الحكومة للشارع، بدليل أنها لم تكرر فعلتها مع غيره من شوارع، عاملني كأنني مخبر مزقوق عليه لأستدرجه للغلط في الحكومة، وأنهى النقاش بجفاء قائلاً: «انت باين عليك فاضي يا ابني، هو اسم الشارع هيفرق معاك في إيه، ما تسكن وانت ساكت».

بالأمانة، كنت فاضياً إلى حد ما حين شغلني ذلك الموضوع، خصوصاً

أن الفترة التي انتظمت فيها في حضور محاضراتي منذ سكنت في شقة أم ميمي، كشفت لي أن الدراسة في كلية الإعلام لم تكن صعبة إلى الحد الذي تصورت، وفيما عدا معاناتي في مادة اللغة الإنجليزية، كنت قادراً على إنجاز ما هو مطلوب مني في وقت قصير، وإيجاد وقت كافٍ لما تسمح به الميزانية من التسلية، ولأن البند المخصص لذلك كان ضئيلاً إلى حد محزن، فقد حاولت شغل بعض وقتي بإشباع هوسي بحل لغز تسمية الشارع، لينتهي ذلك الهوس بفعل شخرة حادة تلقيتها عندما سوّلت لي نفسي أن أذهب بعد فترة إلى مبنى محافظة الجيزة في شارع الهرم ذات يوم دراسي خفيف المحاضرات، لأبحث بوصفي طالباً في كلية الإعلام عن مختص يساعدني على حل اللغز لكتابة الإجابة في تحقيق صحفي ستنشره جريدة الكلية عن أغرب أسماء الشوارع في القاهرة والجيزة.

كانت تلك الشخرة قد انبعثت من حلق موظف الاستعلامات الرابض على مدخل مبنى المحافظة، الذي لم أكن أعلم أن توصيفه الوظيفي يتطلب منه أن يشخر لمن ينشغل بأسئلة كهذه، وأشهد أنه أدى وظيفته بأمانة، فلم يكتف بالشخرة التي خشيت على أحباله الصوتية أن تنقطع من حدتها، بل أعقبها بحجة منطقية أفحمتني حين قال: «ما يسمّوه يا أخي زي ما يسمّوه.. هو انت هتسكن فيه ولا هتشتريه.. وبعدين هي المواضيع خِلصت يعني عشان تكتبوا عن الهيافات دي»، وقبل أن أحصل على فرصة لكي أشرح له أهمية التفاصيل الصغيرة في دنيا الصحافة، قرر التصعيد فجأة وأدار رأسه في الفراغ المحيط به صارخاً: «ما تندهوا لنا حد من الأمن في أم الليلة الخرا دي»، ولم يكن مناسباً في تلك الأيام التي كان يسودها لَبَش الإرهاب، أن أخاطر بفكرة إقناع القادمين من أفراد الأمن أنني رجل هايف، لم يفعل شيئاً سوى ممارسة حقه في معرفة سر تسمية شارعه، لكي يسكن فيه عن اقتناع.

يهمني الآن أن تعرف أن استفاضتي في الحديث عن اسم الشارع الذي يقع فيه بيت أم ميمي، ليس وراءه رغبة في تأخير تعريفك أكثر على أم ميمي نفسها، لأنني لم أكن سأفعل لو لم يكن ذلك ضرورياً لوضعك في أجواء علاقتي بأم ميمي نفسها، التي عاشت معي وماتت على يدي، دون أن أعرف اسمها الحقيقي الذي توارى خلف لقب «أم ميمي»، فكما فشلت محاولتي

في العثور على تفسير لتسمية الشارع، فشلت محاولتي في العثور على تفسير لسر حمل اسم ميمي لذلك اللقب الذي لا يناديها أحد بغيره حتى ابنها وابنتها، وحين حاولت أن أسأل عن اسمها الحقيقي، لأشبع هوسي بالتفاصيل، لم يكن حظي بأفضل من حظي حين قررت أن أسأل الحكومة عن سر استنكافها عن اختيار اسم معتبر لشارع «خلف كازينو إيزيس».

لكن أم ميمي لم تشخر لي مشكورة حين سألتها، ليس لأن حلقها كان مُتعباً، بل لأنها حمّلت سؤالي أكثر مما يحتمل، فقابلته في البدء بصمت لم أفهمه، لكنه دفعني لتغيير الموضوع، وحين امتد صمتها إلى اليوم التالي، وظننته خصاماً سيطول، حاولتُ إنهاء صمتها متوددًا، ومستغلاً ما سبق أن قالته عن استجداعها لي، فاتضح أنها ظنت حين سألتها عن اسمها، أنني سأسأل بعد ذلك عن اسم أمها، وسرحت في ظنونها أكثر، فتخيلت أنني أريد أن أعمل لها عملاً سفلياً، لكي أستعجل لها الموت وآخذ الشقة وضع يد، أو «وضع يتّ»، بنص ما قالته أم ميمي المبتلاة بلدغة في الدال وبانعدام كامل في الثقة في القريبين منها، فضلا عن «الغريبين» من أمثالي، وهو ما دفعني إلى تبديد مخاوفها بتمني طول العمر ودوام الصحة لها، وتذكيرها بأنني عابر سبيل لا ينتوي الإقامة الطويلة، ولكي لا أجرح مشاعرها، لم أقل لها إنني عازم على البحث عن بديل للسكن معها في إجازة نصف العام، بل قلت إنني سأنتقل في العام القادم إلى شقة يسكنها أحد أقاربي، لأنها أقرب إلى جامعة القاهرة، توفيراً للوقت وفلوس المواصلات، وأنني لم أكن أبتغي من سؤالي سوى التعرف عليها أكثر، مضيفاً بحسم: «لكن طالما ده بيقلقِك يتقطع لساني لو سألك السؤال ده تاني»، لتتأثر أم ميمي بما لمسته من صدق كلامي، وتعود المياه بيننا لمجاريها، بأسرع ما تضرب مجاري الشقة كلما أطال أحد في الاستحمام.

أعلم أنني لم أحدثك بعد عن ميمي نفسه، مع أنه كان موجوداً في الصورة منذ سكنت في الشقة، لكن دعني أستبق الحديث بالتفصيل عنه، بالإشارة السريعة إلى موقفه، حين حاولت استغلال الروقان الذي جمعنا يوماً ما، لأعرف منه اسم أمه الحقيقي، لكنني فوجئت أن سؤالي البريء أطار الروقان وكهرَبَ الجو، وجعله يرمقني بنظرة غامضة، ظننتها زغرة زاجرة، فبدأت

أتهيأ للقول إن العشم وحده هو الذي دفعني للسؤال من باب تزجية الفراغ، لأفاجأ أن غموض نظرته لم يكن خداع نظر، بل كان مستنداً إلى حيرته التي لا أدري هل كانت حقيقية أم مؤقتة ونابعة عن سكره البيِّن أم سوقاً للهبل على الشيطنة؟ وإلا لما قال لي ملوحاً بزجاجة «راس العبد» مشروبه الروحي المفضل بسبب رخصه وقوة تأثيره: «طب تصدق والنعمة دي على عيني وعافيتي مش فاكر دلوقتي، أصل أنا وعيت ع الدنيا لقيت كل اللي حواليا بيقولوا لها يا ام ميمي، ده حتى قرايبي اللي في الضاهر باينهم مايعرفوش اسمها أصلاً.. كل مايشتموني يقولوا لي يا ابن الوسخة وساعات حرام عشان الكدب خيبة.. بيقولوا لي يا ابن اللبوة.. إنت عارف إن أنا أصلاً ما عرفتش غير لما جيت أخش المدرسة إن أنا اسمي أصلاً مش ميمي». ولأن صمته طال بعد ما قاله، ولأنني لم يدخل دماغي حكاية أنه لا يعرف اسم أمه، وأدركت أنها ربما كانت تحمل اسماً يستعرّ المرء منه، لذلك قررت أن أشبع فضولي بالحصول على إجابة للسؤال الجديد الذي بات مطروحاً: «أمال انت إسمك إيه أصلا يا ميمي»، ومع أنني افترضت أن لعبي لدور نديم الراح ليلتها سيمنحني إجابة فورية للسؤال، فإنه كبسني عندما قال بجفاء طارئ يشي بسرٍ ما: «أحه يعني وهيفرق معاك اسمي بإيه.. إذا كان مافرقش معايا أنا أساساً».

ربما لأنني لم أكن شغوفاً بمعرفة اسم ميمي الحقيقي، لأنه بالفعل لن يفرق معي ولا معه، فقد كان اسمه الحقيقي أول لغز يتم حله دون أن أسعى إلى ذلك، فقد باحت لي به أمه ذات «ضُهريّة» جمعة ونحن نحتسي الشاي بعد أن أخذنا على بعض وأصبح بيننا كلام وحواديت. كانت رغبة الحكي تتملكها يومها بشدة لم أمانعها بسبب شعوري بالملل الذي تبدد على الفور وانقلب إلى ضحك عاصف، حين قالت لي إن اسم ميمي الحقيقي هو عزت، وهو اسم لم أكن لأتوقعه بأي حال من الأحوال، ليس فقط لأنني لم أعرف وقتها أي عزت في الكون، سوى عزت العلايلي الممثل، بل لأن ميمي نفسه لم يكن يبدو قط كعزت، وهو ما كان في الأصل سبباً لحمله اسم عزت.

تقول أمه في تفسير ذلك إنها عندما أنجبت ميمي كان «حلو حلاوة بنت وسخة.. أحلى حتى من أخته فاتن الكَرتة اللي طلعت شبه العرص أبوها..

والخيبة إننا سمّيناها فاتن.. قال يعني اسمها هيغطّي على خِلقتها العِكرة.. هنعمل إيه بقى.. الدنيا حظوظ.. انت عارف إن الوله ميمي كان أحلى من كل بنات باب الشعرية والضاهر.. كان طالع لي الخالق الناطق وأنا عيِّلة.. انت ما شفتنيش أصلك من بتاع أربعين سنة.. كنت ولا هند رستم في عزها.. بس لاجل الحق بزازي كانت صغيرة مش زيها.. بس مش لدرجة بزاز لَموني.. يعني أكبر شويتين.. وياما وِلعت خناقات بين رجّالة باب الشعرية ورجّالة الضاهر من تحت راسي.. تلاقيك دلوقتي عمّال تقول الولية دي بتشتغلني.. عاذراك.. أصل العيا ابن وسخة وبيهدّ.. بكره أمك تعيا وتعرف.. ولا بلاش عشان أمك بنت حلال.. حسب كلامك يعني أنا ما عاشرتهاش.. المهم يا سيدي لما ولِدت الواد ميمي.. كنت فرحانة أوي بيه.. قلت إيه.. هاسميه ميمي.. على اسم واد يهودي كنت دايماً ألعب معاه واحنا صغيرين.. كنت كلام في سرك بالعب معاه عريس وعروسة.. قبل ما يسيب هو وأهله الحتة والبلد كلها.. الله أعلم فين أراضيه دلوقتي.. المهم لما قلت هاكتبه في الشهادة كمال بس هنقوله يا ميمي.. قامت أمي الله يحرقها.. ما كنتش أطيقها على فكرة.. عشان كانت ست مفترية وجِلدة ولسانها زِفِر.. قالت لي وماله ياختي سمّيه كمال ودلّعيه ميمي.. عشان عيال الحتة تبعبصه وتنطّ عليه وتكسر عينه.. وابقي شُخّي على قبري لو ده ما حصلش.. وبصراحة لقيت عندها حق.. فقلت أسميه عزت.. أهو اسم أنشف شوية.. بس فضلت برضه طول عمري أقوله يا ميمي، والاسم لزق فيه».

وبرغم أن علاقة ميمي بأمه، كانت تمر وقت سماعي للحكاية بمنحنى هبوط حرج، فإن قلب الأم دفعها لأن تقطع استرسالها في الحكي، لتقسم بالأيمان المغلظة أن ما حذّرت منه الجدة لم يحدث قط، لأن الحارة شهدت ميلاد أطفال أحلى منه بكثير، فحملوا عن عزت الشهير بميمي ذلك العبء الذي حذرت منه الجدة، وأزالوا عن أمه عبء ذهابها إلى قبر أمها للتبول عليه.

بالمناسبة كان «العيا» الذي تلقي عليه أم ميمي بلائمة تحويلها من قمر ليموني البِزاز، إلى كتلة مِبعجَرة من الدهون والآلام، هو مرض الربو اللعين الذي كنت أظن قبل سكني مع أم ميمي أنه انقرض من مصر مع انقراض

مرض السل وسائر الأمراض الصدرية التي كانت تصاب بها بطلات روايات مصطفى لطفي المنفلوطي. كانت المرة الأولى التي عرفت فيها بأن أم ميمي مصابة بذلك المرض، بعد أن تسلمت منها الغرفة، ومع أول كوباية شاي جمعتنا، أخذت تملي تعليماتها التي انحصرت في: «ما تجيبش شراميط في الشقة وأنا هنا.. عندك يوم الخميس اللي بانزل فيه الضاهر أزور أهلي.. لو عرفت تسرّب واحدة.. سرّبها ماشي بس خُد بالك ميمي لو قفشكو هيقاسمك فيها.. تاني هام إوعى تاكل لحمة أو زفر من غير ما تعزم عليّ.. أنا سمعي تقيل شوية بس مناخيري بتلقط طبيخ الشارع اللي ورانا فهامرمطك لو طلعت بخيل.. ما فيش أوسخ من المعرّصين إلا البُخلا.. تالت هام إوعى يوزّك عقلك بالليل وأنا نايمة تقرب لي وتوسّخ.. عشان تبقى فاهم أنا عيّانة وعندي الربو.. يعني لو كحيت في وشك هتتعدي ويطلع عين أمك.. ده طبعاً غير إنك مش هتسلم من إيديا اللي مش هتسيبك إلا لما تقطع لك بتاعك».

ولأنني لم أكن راغباً في وضع أي حواجز نفسية بيني وبينها منذ البداية، لم أرد أن أُسَفِّه من اعتقادها بأنها يمكن أن تكون مطمعاً للراغبين، فلم أقل لها مثلاً: «أنا اللي هاسبقك وأقطع بتاعي بإيدي لو فكّر يقرّب لك»، بل رسمت على وجهي ملامح الخشية من تحذيرها، وقلت لها بصوت متهدج: «بصي يا ست الكل أنا واد غلبان وبتاع ربنا ومماليش في المسخرة وقلة الأدب.. غير إن أصلاً ظروفي مش ولا بد.. ومش لاقي أصلاً اللي أجيب بيه زَفَر عشان أجيب نسوان.. فاطّمني خالص بالنسبة لموضوع النسوان والبخل.. أما موضوع إني أقرب لك يعني لو الشيطان غَوَاني فدي حاجة ربنا يعين عليها بس انتي برضه لو سمحتي اقعدي حشمة بره أودتك عشان الشيطان شاطر»، ولم يكن غريباً أن تؤتي إجابتي أُكُلها فوراً، لأرى كيف تورد وجهها خجلاً، قبل أن تعدني بجدية أنها ستحرص على ذلك، لكي نتعاون أنا وهي في إخزاء الشيطان الذي كانت واثقة أنه سيكون رابعنا في حالة وجود ميمي ابنها في الشقة وثالثنا في حالة غيابه.

لكن، دعك الآن من تصور أم ميمي أنني ربما أكون راغباً في دعكها أو التحرش بها، والذي عرفت فيما بعد أنه لم يكن تصوراً مغموساً في البارانويا، بل كان له ما يبرره في تاريخها الحافل، ودعني أحدثك قليلاً عن

ميمي الذي لم تكن أمه مبالغة حين وصفته بالوسامة، فقد كان أشقر الملامح سايح الشعر محمرّ الخدود بهي الطلعة، لكنه كان أوسخ من عرفت، على كثرة من عرفت من أوساخ.